ليتنى ما ولدته

للكاتب الإيطالى لويجى براندللو

بقلم الدكتور حسن صادق

— هل (نتفا روزا) هنا ؟

— نعم . اطرقى الباب بقوة

طرقت (ماراجرازيا) الباب ولم يجبها أحد ، فجلست القرفصاء على الدرجات المؤدية إلى عتبة الباب

كانت هذه المرأة الرثة تقضى أكثر وقتها فى ذلك المكان ، نائمة تارة ، وباكية فى السكون الشامل تارة أخرى . وكان المارة يمرون بها من حين إلى آخر ، فيلقون فى حجرها قطعة زهيدة من المال أو كسرة من الخبز ، فيقطعون عليها نومها الهادئ ، أو بكاءها الأليم . وفى تلك الحال تقبل المال أو الخبز وترسم على صدرها إشارة الصليب ثم تعود ثانية إلى النوم أو إلى البكاء والأنين

عليها أسمال بالية تهتكت من كل جانب ، أفسدها العرق وأقذار الطرق وذهب بلونها الزمن . وكانت تغدو فى هذه الثياب المتداعية وتروح ، لا تعرف الخلاص منها بوجه ولا حيلة . وكان وجهها الشاحب المعروق قد انتشرت على صفحته التجاعيد حتى أصبح لا يُرى منه غيرها ، وجفونها الحمر قد تمزقت من طول البكاء ، ولكن عينيها احتفظتا بالصفاء المبتسم الذى يمثل الطفولة العارية من الذاكرة ولا يتلاءم مع هذه التجاعيد وتلك الجفون الحمر . وكان الذباب الذى يحوم فى الفضاء من حولها يستطيب عينيها فلا تشعر به ولا تطارده ، لأنها تعسة غارقة فى همومها طيلة الوقت . ولم يبق فى رأسها إلا القليل من الشعر الشعث قد انفرق من الوسط فرقين ، وتدلى من الجانبين على أذنيها المزرقتين من أسفل ، نتيجة حمل قرط ثقيل فى أيام شبابها

وكانت جاراتها يجلسن دائماً على الأبواب ولا يعرنها اهتماماً ، ويقضين الوقت كله فى أماكنهن يرتقن الملابس أو يهيئن البقول للطبخ أو يطرزن ، ولا يكففن عن الكلام وهن منهمكات فى أعمالهن أمام بيوتهن المنخفضة التى لا ينفذ إليها النور ولا الهواء إلا من خلال الأبواب . وكانت هذه البيوت الوبيئة تستخدم أيضاً حظائر للحيوان ، وأرضها مصنوعة من الأحجار الناتئة كأرض الطريق . وإذا ولج إنسان داراً من هذه الدور ، رأى فى أحد الأركان حماراً أو بغلاً يتوجع من جرح أو مرض ، وفى ركن آخر فراشاً حقيراً تتراكم من حوله أنواع مختلفة من الخضر وغلة الحقول ، كل نوع على شكل ناووس يستخدم مقعداً للزائرين ، ثم كرسيين أو ثلاثة من القش ، ثم آلات الزراعة مبعثرة على الأرض ، وعلى الجدر التى اسودت من كثرة الدخان الذى يتصاعد إليها بعض صور زهيدة الثمن لا تمت إلى الفن بأية صلة . ويرى السائر فى طريق القرية التى يختلط فيها الدخان الكثيف بالرائحة البغيضة المتصاعدة من حظائر الحيوان ، أطفالاً يلعبون قد سفعت جلودهم أشعة الشمس ، بعضهم عارى الجسد كما ولدته أمه ، والبعض الآخر متستر بقميص واحد كثير الفتوق

* * *

في ذلك اليوم الذي طرقت المرأة المسكينة فيه باب تنفاروزا كان الناس يتكلمون عن فئة جديدة من المهاجرين الذين ينوون الرحيل إلى أمريكا في اليوم التالي :

— سيرحل (ساروسكوما) ويترك من خلفه إمرأة وثلاثة أطفال

— وسيصحبه (فيتوسكورديا) ويهجر أولاده الخمسة الصغار وامرأته وهي حامل

— يقال إن (كارمن رونسا) سيأخذ معه ولده ، وهو في الثانية عشرة من عمره وقد بدأ يكسب قوته من عرق جبينه ... أيتها العذراء المقدسة : أليس من المفروض عليه أن يترك هذا الولد لامرأته ؟ كيف تصنع هذه التعسة الآن ؟ !

— لم أسمع ليلة أمس غير البكاء والعويل في بيت (مينوزيا) ، وابنه الذي عاد من المعسكر منذ قليل رغب في السفر أيضاً :

سمعت ماراجرازيا العجوز تلك الأقوال صامتة ، وأدخلت طرف شالها في فمها لتحبس في صدرها الزفرات . ولكن حزنها استبد بخيالها فسال من عينيها دموعا سخينة

مضى أربعة عشر عاماً على سفر ولديها إلى أمريكا . ولقد وعداها العودة إليها بعد أربعة أعوام أو خمسة ، ولكنهما أصابا هناك الغنى والثروة وعلى الأخص أكبرهما سناً ، ونسيا أمهما العجوز

وفي كل مرة ترحل فيها فئة من أهل (فارنيا) إلى أمريكا ، كانت تقصد ماراجرازيا إلى تنفاروزا وتستكتبها خطاباً ثم تسلمه إلى أحد المهاجرين وتضرع إليه أن يحمله إلى أحد ولديها

وفي كل مرة ، أثناء عهد طويل ، كانت تتبع هؤلاء المهاجرين في الطريق ، وهم يحملون غرارات وأمتعة ، حتى يبلغوا محطة المدينة المجاورة ، يشيعهم الأبناء والأمهات والأخوة والأخوات بالعويل والنشيج . وكانت المرأة المسكينة تحدق ببصرها في عيون الشبان من المهاجرين ، وكل منهم يتصنع البشر والابتهاج ليخفي انفعاله الشديد ويشجع أقرباءه الذين يصحبونه

وفي كثير من الأحيان كان يدور بين ماراجرازيا والشبان المهاجرين حوار قصير :

— أيتها العجوز المجنونة ، لماذا تحدقين في هكذا ؟ أتريدين أن تفقئي عيني ؟ !

— كلا يا بني ، إني أحسدك عليهما لأنهما ستريان ولدي الغائبين : وأستحلفك بالله أن تصف لهما حالي الأليمة ، وأن تقول لهما إذا تأخرا أكثر من ذلك فإنهما لن يجداني على قيد الحياة !

* * *

بينما كان النساء يتحدثن في شأن الذين سيرحلون إلى أمريكا في اليوم التالي ، تكلم فجأة رجل شيخ كث اللحية أغبر الشعر أشمطه ، كان إلى تلك اللحظة يصغي إلى الحديث ولا ينطق بكلمة ، وكان مستلقياً على ظهره معرضاً صدره لأشعة الشمس مبتهجاً بتدخين غليونه ، قال هذا الشيخ وقد رفع رأسه المسند الى حجر وبصق :

لو كنت ملكا لحظرت على أي خطاب يرد من أمريكا دخول قرية (فارنيا)

فصرخت إحدى النساء وقالت : ما هذا يا جاكو سيدنا ؟ وكيف تعيش الأمهات والزوجات البائسات إذا انقطع عنهن المال والأبناء ؟

فقال الشيخ مغمغما وقد بصق ثانية : « آه ! نعم : أمن أجل المال الذي يرسلونه ؟ إن الأمهات مرغمات على العمل في البيوت خادمات ، والزوجات

على الذهاب بعرضهن إلى بورصة الشقاء ! ولكن لماذا لا يروون فى رسائلهم شيئاً عن الشر الذى يجدونه هناك ؟ ! لماذا لا يكتبون إلا عن وجه الأشياء الحسن فيجيب صغار الأحلام على ذلك بالرحيل ؟! لم يعد فى القرية أيد قوية لفلح الأرض وزرعها ! أقفرت القرية إلا من الشيوخ والنساء والأطفال الصغار . والرجال برغم هذه الحالة يواصلون الهجرة ويقبلون عليها إقبالاً مروعا ! »

وفى هذه اللحظة فتحت ننفاروزا بابها ، وكانت سمراء اللون كحيلة الطرف ساحرة اللحظ أرجوانية الشفتين بضة الجسم رشيقة القوام ، يبدو على هيئتها الفرح والمرح ، وكان على صدرها الجميل شال من القطن أحمر اللون به نقوش على شكل أقمار صفراء ، وفى أذنيها قرط من الذهب كبير الحجم ، وقد جمعت شعرها فى مؤخرة الرأس وجمعته على شكل كرة كبيرة ، وحفظته من التشعث بدبوس من الفضة

آمت هذه المرأة بعد عامين من الزواج ثم تزوجت من رجل آخر هجرها منذ خمسة أعوام وسافر إلى أمريكا ، وكان يزورها أحد أغنياء البلد من حين إلى آخر خلسة فى ظلام الليل ، ويدخل بيتها من الباب الصغير حتى لا يشعر به أحد ، وكان جاراتها الشريفات اللاتى يخشين الله يرمقنها بعين الحقد ويحسدنها فى قلوبهن ؛ وسبب حقدهن عليها يرجع إلى اعتقادهن أنها كتبت إلى بعض المهاجرين فى أمريكا رسائل بغير إمضاء لتفسد عندهم سمعة نسائهم انتقاما لنفسها من مهاجرة زوجها الثانى

دنت ننفاروزا من الشيخ وقالت : « من هذا المخلوق الذى يهذى ؟ آه هذا أنت يا جاكو ؟! صدقنى إذا قلت لك إن أحب الأشياء إلينا أن نظل فى القرية بلا رجال ، وستتدرب النساء على العمل فى الحقول فاطمئن بالا »

فأجاب الشيخ بصوته الخشن : « النساء لا يحسن إلا شيئاً واحداً فقط : » ثم بصق فسألته بصوت مرتفع : «أى شىء يا جاكو »

— يحسن البكاء وشيئاً آخر

— إذن يحسن شيئين : ولكن انظر إلى أنا . إنى لا أبكى

— إيه : أعرف ذلك جيداً : إنك لم تبكى حتى عند موت زوجك الأول !

— إذا فرضنا وكنت أنا التى سبقته إلى العالم الآخر ، أكان يحجم عن الزواج ثانية ؟ إذن ... أنظر إلى هذه المرأة التى تبكى نيابة عن الناس جميعاً : إنها ماراجرازيا

— لدى هذه العجوز ماء كثير وهى تصبه من عينيها

ضحك السامعون من سخرية جاكو ثم قالت ماراجرازيا وهى تهز رأسها : « لقد فقدت ولدين جميلين فكيف لا أبكيهما ؟! »

فقالت ننفاروزا : نعم فقدت ولدين جميلين يستحقان البكاء ... إنى أوافقك على ذلك . ولكنهما فى نعيم هناك وبتركانك هنا تموتين بكاء وجوعا »

— أنا الأم وليس فى استطاعتهما أن يدركا مبلغ ألمى !

— إذن لماذا تذرفين كل هذه الدموع وتحملين على نفسك هذا الألم الشديد ؟ يقول الناس إنهما فزعا إلى الرحيل فرارا من قسوتك وسوء معاملتك

فصرخت ماراجرازيا وضربت صدرها بيدها وقالت : « أنا ؟ من الذى قال ذلك ؟ »

— بعض الناس

— يا للخزى : أنا ؟ أبنائى ؟ أما التى ...

فقاطعتها إحدى النساء بقولها : « ما هذا الانفعال ؟ دعيها تقول ! ألا ترين أنها تمزح ؟ »

وضحكت ننفاروزا طويلا ثم أرادت أن تكفر عن مزاحها الأليم فقالت للاراجرازيا بصوت رقيق : « تكلمى يا جدة واطلبى منى كل ما تريدين »

مدت مارا جرازيا يدها المرتعشة إلى وسطها وأخرجت من حزامها ورقة وغلافا وقدمتهما إلى ننفاروزا فى ضراعة وقالت :

— أتتفضلين على بالكتابة مرة أخرى ؟

— ثانى خطاب أكتبه !

— نعم إذا شئت وتكرمت

عبست ننفاروزا وضاقت بهذا الطلب ، ولكنها أدركت أنها لن تجد السبيل إلى الخلاص من إلحاح العجوز ، فدعتها إلى بيتها ، ولم يكن هذا البيت بمثل البيوت الحقيرة التى تجاوره ؛ وكانت غرفته كبيرة مظلمة قليلاً حين يكون الباب مغلقاً ، ولا ينفذ إليها النور إلا خلال كوة ذات قضبان حديدية فى أعلى الباب ، وأرضها مصنوعة من الآجر وفيها سرير من حديد وصوان الملابس ومنضدة صغيرة سطحها من الرخام الأبيض . وهذا كل ما استطاعت ننفاروزا الحصول عليه من ربحها كدانسكة فى الريف

تناولت القلم ووضعت الورقة على الرخام واستعدت للكتابة وهى واقفة وقالت :

— تكلمى وأسرعى

— أكتبى : ولدى العزيزين ، لم تمد عيناى تقويان على البكاء ... كتبت ننفاروزا ما أملت عليها وهى تتنهد تنهدة التعب والملل ، وواصلت العجوز الاملاء :

— لأنهما تتحرقان شوقاً إلى رؤيتكما مرة أخرى على الأقل ... فتمجاتها ننفاروزا وهى تقول : « استمرى ، استمرى ... إنك كتبت لها هذه الكلمات ثلاثين مرة على الأقل ! »

— أكتبى على كل حال . إنها الحقيقة ياعزيزتى ، وأنت ترين جيداً مبلغ ألمى . . . أكتبى : ولدى العزيزين ...

— أمن جديد ؟

— كلا ... سأملى شيئاً آخر ... لقد فكرت فى ذلك الليل كله . إسمعى : ولدى العزيزين ، أمكما المسكينة تمدكما وتقسم لكما ... أكتبى ما أملى ... تمدكما وتقسم لكما أمام الله أنكما إذا رجعتما إلى (فارنيا) فانها تهب لكما بيتها وهى على قيد الحياة

وهنا انفجرت ننفاروزا ضاحكة وقالت : « بيتك الخالى ؟ وماذا يصنعان به وهما الآن فى خفض من العيش ؟ ماذا يصنعان بجدره الأربعة المصنوعة من القش والطين ؟ »

— أكتبى على كل حال : أربعة أحجار فى الوطن خير من مملكة فى ناحية أخرى ... أكتبى

— كتبت ما أمليت . هل تريدين إضافة شىء آخر إلى الخطاب ؟

— نعم : أمكما المسكينة أدركها الشقاء وهى تقفقف من قسوة البرد ، وتروم شراء ثوب ولا تستطيع ، فجودا عليها بخمس ليرات على الأقل ...

فقالت ننفاروزا : وهى تجفف المداد وتضع الورقة فى الغلاف : « قول جميل . لقد كتبت كل شىء »

— هل وضحت جيداً هذه الجملة : جودا عليها بخمس ليرات ؟

— وضحت كل شىء

— حقاً ؟

— أوه ! قلت نعم !

— يا ابنتى إظهرى قليلاً من الصبر مع عجوز مسكينة ! ماذا تنتظرين من بلهاء مثلى ؟ ! فليكافئك الله والعذراء !

تناولت الخطاب ووضعته فى حزامها ، وأرادت أن تأمن عليه ابن ميتوزيا ليحمله إلى ولديها ، فغادرت بيت تنفاروزا وأخذت سمتها إلى بيتها

* * *

أسدل الليل سدوله ودخلت النساء بيوتهن ، وأغلقت جميع الأبواب إلا قليلاً ، وأقفرت الأزقة الضيقة من السابلة ولم يبق فيها غير رجل واحد يحمل سلماً على كتفه ، يسير خلال القرية يشعل مصابيحها القليلة المبعثرة ذات الضوء الضعيف المهتز ، الذى يحمل سكون الأزقة الشامل حزيناً رهيباً ثقيلاً على النفس

وكانت ماراجرازيا أثناء سيرها تضغط بإحدى يديها على الخطاب الموضوع فى حزامها ، كأنما هى تريد أن تنقل إلى قطعة الورق جزءاً من حرارة الأمومة ، وتحك بيدها كتفها تارة ورأسها تارة أخرى . وكانت كلما كتبت خطاباً غمرها الأمل الكبير واعتقدت أن سيؤثر فى ولديها ، ويأتى بهما إليها

ولكنها فى هذه المرة لم تكن راضية ولا مطمئنة إلى الخطاب ، لأنها رأت تنفاروزا تكتبه فى عجلة شديدة ، واعتقدت أنها لم تكتب الجملة الخاصة بالخمس قرات التى تطلبها لشراء ثوب يقيها برد الشتاء

وأثناء مرورها بالأبواب المغلقة ، بلغ سمعها صرخات الأمهات اللاتى يبكين رحيل أولادهن المقبل ، فقالت وهى تضغط على الخطاب بقوة :

« أيها الأبناء ، كيف تطاوعكم قلوبكم على الرحيل ؟ إنكم تعدون بالرجوع ولا تبرون بوعدكم ... آه ! أيتها الأمهات البائسات إياكن والثقة بوعودهم ! إن أولادكن كولدى ، لن يعودوا أبداً »

وبينما هى كذلك إذ سمعت فجأة وقع قدمين يرن فى الزقاق ، فوقفت تحت أحد المصابيح وتساءلت من عساه يكون هذا الشخص ؟ ولما دنا منها عرفت أنه طبيب القرية الجديد الذى يقال إنه سينقل قريباً ، لا لأنه يهمل فى أداء واجبه ، ولكن لأن أغنياء البلد يبغضونه على النقيض من الفقراء . وكان هذا الطبيب فى زهرة شبابه ، ولكنه كان شيخاً بتجربته وعلمه ؛ وحين كان يتكلم فى جمع من الناس كانوا يصغون إليه مشدوهين مأخوذين ببلاغته وتدفقه ؛ ولم يكن له أم تحزن عليه إذا رحل إلى أمريكا كما كان يشاع عنه

وقبل أن يبلغ مكان ماراجرازيا بضع خطوات قالت ضارعة : « سيدى الطبيب ! أتسمح بأن تؤدى إلى معروفاً كبيراً ؟ » فانزعج الطبيب من الصوت المباغت ، ثم وقف تحت المصباح وقال بصوت مرتفع : « من المتكلم ؟ آه ! هذا أنت ... »

وذكر فى الحال أنه رأى هذه الخرق البالية عدة مرات على أبواب البيوت ؛ ولما هدأ ما ألم به من الفزع ، قالت له :

أتتفضل علىّ بقراءة هذا الخطاب الذى سأرسله إلى ولدىّ ؟

— سأحاول ذلك إذا استطعت فى هذا الضوء الضعيف

ثم لبس منظاره وأخرجت ماراجرازيا الخطاب من حزامها وناولته إياه ، وانتظرت أن يعيد على سمعها الجمل التى أملتها على تنفاروزا

ولكن الطبيب لم يقرأ ، إما لأنه لم ير جيداً وإما لأنه عجز عن قراءة الخط . ثم شرع يدني الورقة من عينيه ثم يبعدها قليلاً ليستثمر جيداً نور المصباح ، وبعد وقت قصير طال على المرأة المسكينة سألها : « ماهذا ؟ » فسألته ماراجرازيا بدورها فى خجل وتواضع : « ألا تستطيع قراءته ؟ » فضحك الطبيب وقال : « ليس فى الورقة كلمة واحدة مكتوبة ، ولكن فيها أربع خطوط فى تعاريج صبيانية : انظرى ! »

فصاحت العجوز مبهوتة : « كيف ؟ »

— انظرى وأنعمى النظر . لم يكتب فيها كلمة

— أجائز هذا ؟ وكيف وقع ، مع أنى أمليته على تنفاروزا كلمة كلمة ، ورأيتها تكتب :

فهز الطبيب كتفيه وقال : « لقد تظاهرت بأنها تكتب »

جمدت ماراجرازيا فى مكانها ثم ضربت صدرها بيدها وقالت فى ألم شديد : « آه ! الخائنة ! لماذا تخدعنى وتسخر من عواطفى ؟ الآن عرفت لماذا لا يجيب ولداى على رسائلى ! إنها لم تكتب قط ما كنت أمليه عليها ... عرفت السبب ! إذن ولداى لا يعرفان شدة عذابى : لا يعرفان أنى أموت من أجلهما ! رب كيف يجرؤ انسان على خيانة أم عجوز مسكينة مثلى ؟ يا للعار ! »

نال ألم المرأة من نفس الطبيب منالاً كبيراً ، واجتهد فى أن يهدئ قليلاً من غضبها ويأسها ، وسألها عن تنفاروزا أين تقيم ليوجه إليها فى اليوم التالى ماتستحق من اللوم . ولكن المرأة كانت لاهية عنه بالتفكير فى التماس المعاذير لولديها البعيدين عنها ، وشعرت فى تلك اللحظة بوخز الضمير الأليم لأنها اتهمتهما أعواماً طوالاً بغير حق ، واعتقدت أنهما لو كانا تسلما خطاباً واحداً من خطاباتها الكثيرة لعادا اليها طائرين على أجنحة الشوق والحنان

ولكى يطيب الطبيب خاطرها وعدها بأن يكتب بيده خطاباً مطولاً لولديها فى صباح اليوم التالى ، ثم قال : « خلى عنك اليأس واذهبى الآن الى النوم والراحة ، وغداً صباحاً أنتظرك فى بيتى لتحقيق رغبتك » ثم تركها وسار فى طريقه

كيف تنام هذه الأم المعذبة أو تحن الى الراحة ؟ عاد الطبيب بعد ساعتين من تلك الجهة نفسها فوجد ماراجرازيا فى مكانها الذى تركها فيه جالسة القرفصاء تحت ضوء المصباح وهى تبكى وتتململ . فأخذ عليها عملها الجنونى وأرغمها على النهوض ، وطلب إليها أن تذهب الى بيتها فى الحال . ثم سألها :

— أين تقيمين ؟

— آه ! يا سيدى الطبيب ، عندى كوخ فى الجهة المنخفضة من القرية . لقد رجوت من هذه المرأة المخادعة أن تكتب إلى ولدى أنى أنزل لهما عنه أثناء حياتى إذا قبلا العودة الى وطنهما ، فضحكت ملء شدقيها وقالت : ماذا يصنعان بأربعة جدر مصنوعة من القش والطين ؟ ... ولكنى ...

— حسن ، حسن . اذهبى ونامى ، وفى الغد لن نغفل الكلام عن الكوخ فى الخطاب . تعالى سأصحبك

بارك الله فيك ياسيدى الطبيب . ولكن ماذا تقول ؟ ستصحبنى ؟ اذن سر أمامى لأنى عجوز ولا أستطيع السير إلا ببطء شديد

فلم يسع الطبيب إلا أن يتمنى لها ليلاً سعيداً ويتركها ؛ فتبعته فى خطى ضعيفة متثاقلة . ولما بلغت الباب الذى رأته يدخل منه ، وقفت وغطت رأسها وصدرها بشالها ثم جلست على السلم المؤدى

الى عتبة الباب فى انتظار طلوع النهار

وعند بزوغ الفجر ، استيقظ الطبيب كعادته للقيام بزيارة المرضى . ولما فتح الباب سقطت ماراجرازيا الى الخلف عند قدميه لأنها كانت مستغرقة فى النوم وقد أسندت ظهرها الى الباب فعجب أشد العجب وقال : « أوه : لقد أسأت الى نفسك جد الاساءة » فأجابت وهى تحاول النهوض : « سامحنى يا سيدى »

— هل قضيت الليل فى مكانك هذا ؟

— نعم ياسيدى . اطمئن بالا فقد ألفت ذلك . كيف أستطيع أن أوارى نفسى وأنسى خيانة هذه المرأة الخبيثة ؟! سأقتلها ياسيدى . كان فى استطاعتها أن ترفض الكتابة فى صراحة وأن تقول إن طلبى يبعث فى نفسها الضيق والملل فأذهب الى شخص آخر ... أذهب الى رجل طيب القلب مثلك ...

— نعم . انتظرينى هنا قليلا . سأزور المرأة التى خدعتك ثم أعود لكتابة الخطاب

وسار متجها نحو الطريق الذى عينته له العجوز فى المساء السابق ، وشاءت له المصادفة أن يقابل تنفاروزا خارجة من بيتها فى تلك الساعة دون أن يعرفها ، وسألها عن عنوانها . فأجابت وهى تضحك وقد احمر وجهها : « إنى أنا تنفاروزا ياسيدى الطبيب » ثم دعته الى دخول البيت

إنها رأت هذا الطبيب الشاب الجميل يجتاز الزقاق الذى تقيم فيه كثيراً من المرات ، ولكنها لم تتعرف إليه لأنها كانت فى أكمل صحة ولم تجرؤ على إدعاء المرض ؛ فلما رأته يسأل عنها من تلقاء نفسه ليتحدث إليها ، ظهر على وجهها أمارات السرور المشوب بالدهشة الشديدة . ولما رأته مضطربا عابسا وعرفت الغرض من هذه الزيارة ، انحنت عليه قليلا فى خلاعة ساحرة دون أن تعلم السبب الحقيقى للألم الذى عنده . ولما استقر به المقام ، طفق يتحدث وهى تصغى إليه ، ثم قالت فى لهجة الجزع ، وقد أغمضت عينيها الكحيلتين الخلابتين « عفوا ياسيدى الطبيب . أتزعج نفسك إلى هذا الحد من ، أجل هذه العجوز المجنونة ؟ الناس جميعاً هنا يعرفونها ولا يفلت أحد منهم نفسه من جوارها . سل من تشاء . سيقول لك جميع الناس إنها مجنونة ، مجنونة حقاً منذ أن رحل ولداها إلى أمريكا ، وقد مضى على ذلك أربعة عشر عاما . إنها لا تريد أن تصدق أنهما نسياها كما هو الواقع والحقيقة . وهى مصرة على الكتابة اليهما دائماً ؛ تريد أن ترسل إليهما فى كل يوم خطابا ، ولكى أدخل على نفسها الابتهاج ، كنت أتظاهر بكتابة ما تريد ، وكان المهاجرون إلى أمريكا يظهرون لها أنهم سيحملون رسائلها إلى ولديها ، فتظل المرأة غارقة فى غرورها . وإذا كنا نجاريها ونجيبها دائماً إلى ما تطلب ، فأن حياتنا تصبح نكدة صعبة الاحتمال . أنظر إلى يا عزيزى ، إنى أنا أيضاً قد هجرنى زوجى . وهل تعرف القحة التى كشف بها عن خبث طويته ؟ إنه أرسل إلى صورته مع خليلة أمريكية ، وأستطيع أن أطلعك عليها فترى رأسه إلى جانب رأسها ، ويده فى يدها هكذا ... أتسمح ؟ هات يدك .... هكذا ، وهما يبسمان استخفافا بالذين يطلعون على صورتهما ! وأقسم لك أنى ضحكت كثيراً حين تسلمت الصورة . آه ! ياسيدى الطبيب ، إن الانسان يبكى الذين يرحلون ولا يرثى لحال الذين يبقون ! لقد بكيت أيضاً ؛ وهذا أمر طبيعى فى الأيام الأولى ، ولكنى ثبت من بعدها إلى عقلى ... والآن أعيش فى أحسن حال ،

وكلما وجدت فرصة تمو ، لهوت . ينبغى أخذ الحياة كما هى ... »

خفض الطبيب بصره اضطرابا من العطف الذى أظهرته المرأة الجميلة نحوه ثم قال :

— ربما عاكين ما يقوم بحاجتك ، ولكن هذه العجوز البائسة ...

— من ؟ هى ؟ عندها مايجعلها تعيش كأميرة عظيمة ولكنها لا تريد

فسألها الطبيب وهو يحدق فيها « كيف ذلك ؟ » ولما رأت تنفاروزا منظر وجهه المشدوه عادت الى الضحك بقوة كاشفة عن ثناياها الخلابة ثم قالت :

— نعم إنها لا تريد يا سيدى . لها ابن آخر ، وهو أصغر أبنائها ، يود لو تقيم معه

— ابن آخر ؟ هى ؟

— نعم يا سيدى اسمه روكو . ولكنها لا تريد أن تعرف عنه شيئاً

— ولماذا ؟

— لأنها مجنونة كما قلت لك . إنها تبكى فراق الاثنين الآخرين ليلاً ونهاراً ، ولا تقبل من ابنها روكو أى شىء برغم توسلاته

زوى الطبيب ما بين عينيه حتى لا تبدو عليه أمارات الدهشة مرة أخرى ، وحتى يخفى اضطرابه الشديد ثم قال :

— ربما لا يحسن هذا الابن معاملتها

— لا أعتقد ذلك . إنه قبيح الخلقة عبوس الوجه دائما ، ولكنه كريم النفس سرى الخلق . وهو مجد لا يعرف غير عمله وزوجه وأولاده . إذا أردت أن تراه ، فسر فى هذا الطريق المستقيم أمامك ، تجد على اليمين بعد مسير ربع فرسخ على الأكثر (بيت العمود) كما يسميه الناس . إنه يقيم فى هذا البيت ، وله مهنة جميلة تدر عليه خيرا كثيرا . إذهب اليه وسترى أنى على حق فيما قلت لك

نهض الطبيب وهو أشد ما يكون شوقا الى رؤية هذا الابن ، ثم قال : « إنى ذاهب اليه »

ووضعت تنفاروزا يدها على شعرها ، ورنت الى الطبيب بلحظها الساحر وقالت : « أتمنى لك استراحة طيبة ، وأقدم اليك وافر احترامى »

* * *

سار الطبيب فى طريق ضيقة كثيرة الأحجار تقوم على جانبيها بعض الدور والأكواخ الحقيرة ، حتى خرج من القرية وأخذ طريقا آخر وسط الحقول ، وهو يلقى بنظراته يمنة ويسرة ، ويرى الأرض الجافة التى تنتظر المطر حتى تثمر ، وراءه أثناء مسيره روح الحزن الذى يخيم على الأرض وقد رحل عنها أكثر سكان القرية ورجالها

آه ! ها هو ذا بيت العمود . وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه يجاور عمود معبد رومانى قديم لم يبق منه إلا ركن واحد . ولما دنا الطبيب من البيت وقف أمام السور وصاح « هو هو ! » حتى يأتيه من يجنبه خطر الكلاب . فأجابه صبى فى العاشرة من عمره عارى القدمين يضرب لون عينيه الى الخضرة ، وعلى رأسه قبعة من القماش قد ذهبت بلونها أشعة الشمس . سأله الطبيب :

— أهنا كلب يخشى منه ؟

— نعم . ولكنه هادىء لا يؤذى أحداً

— هل أنت ابن روكو ؟

— نعم يا سيدى

— وأين والدك ؟

— فى الحقل

وكانت أم الصبى جالسة على مقعد حجرى أمام البيت تمشط شعر ابنتها الكبرى وهى فى الثانية عشرة من عمرها ، وكانت جالسة على مقعد حجرى آخر وظهرها إلى أمها ، وفى حجرها طفل رضيع . وكان أمامها طفل آخر يلعب فى الأرض وسط الدجاج والديكة . فقال الطبيب للمرأة « أريد أن أتحدث إلى روكو . إنى طبيب القرية الجديد »

لم تحر المرأة جواباً لأنها اضطربت ولم تفهم السبب الذى من أجله يريد الطبيب أن يتحدث إلى زوجها . ثم أصلحت قميصها الخشن ونهضت لتقدم إلى الطبيب مقعداً ؛ ولكنه رفض الجلوس وانحنى على الطفل الذى يلعب فى الأرض ، مداعباً ، وجرى الصبى الكبير إلى الحقل لينادى أباه

وبعد لحظات سمع وقع أقدام ثقيلة ، ولمح من بين أشجار التين الكثيفة روكو يسير نحو البيت مقوس الظهر والساقين ، ويده فى وسطه كعادة الفلاحين فى تلك الجهة . وكان زرى الهيئة دميم الخلقة واسع الفم غليظ الشفتين مصفر الوجه مشوه الوجنتين ، وكانت عيناه غائرتين ينبعث منهما بريق لا تطمئن إليه النفس

رفع هذا الرجل يده إلى رأسه ورفع قبعته إلى الخلف علامة التحية وقال للطبيب :

— أقبل يديك يا سيدى . ما الذى أستطيع أداءه ؟

— جئت لأخاطبك فى شأن أمك

فاضطرب روكو وسأله فى لهفة :

— أليست فى صحة تامة ؟

— اطمئن من هذه الناحية . ولكن الشيخوخة أدركتها كما تعلم وتفتقر إلى العناية ...

وكلما أسهب الطبيب فى الكلام ، ازداد اضطراب روكو ثم قال :

— سيدى الطبيب ، إنى خاضع لك فى كل ماتحكم به . ولكن إذا كنت قدحضرت خصيصاً لتخاطبنى فى شأن أمى ، فانى أستأذنك فى الانصراف الى عملى

— انتظر ، إنى أعرف أنك رجل مجد ، وقيل لى إنك على النقيض من ...

— ادخل البيت يا سيدى الطبيب ؛ إنه بيت فقراء ولكنك طبيب ، وقد رأيت كثيراً من أمثاله . أريد أن أريك الفراش المعد دائماً لهذه العجوز الطيبة القلب ! إنها أمى ولا أستطيع أن أطلق عليها اسماً آخر ، ها هى ذى امرأتى وها هم أولاء أولادى ، إنهم يقرون أنى كنت آمرهم دائماً بخدمتها واحترامها ، كما يخدمون ويحترمون العذراء المقدسة . الأم مقدسة أيضاً يا سيدى الطبيب ! لم أهملها يا سيدى ولكنها تغمرنى بالخزى أمام الناس وتجعلهم يظنون بى ... من يدرى ؟ ربيت يا سيدى عند أقرباء أبى ونشأت بينهم ، وما كان ينبغى لى أن أحترمها كأم لأنها كانت تعاملنى بقسوة وخشونة ، ولكنى مع ذلك أحترمها دائماً وأشفق عليها . ولما رحل ولداها الى أمريكا ، رجوت منها أن تقيم معى وأن تكون سيدة البيت ، ولكنها رفضت رجائى وفضلت الاستجداء فى الطرق وإغراقى فى العار ! وأقسم لك أنى إذا رأيت أحد ولديها قد عاد الى فارنيا فانى سأقتله انتقاماً لنفسى من هذا العار ومن الآلام التى تحملتها طيلة أربعة عشر عاما ! سأقتله

ياسيدى ، وإنى أجهر لك بذلك أمام زوجى وأولادى .

وهنا مسح روكو فمه بذراعه وهو يرتعد وقد صعد الدم الى عينيه الغائرتين ، وكان الطبيب يصغى إليه ويحدق ببصره فيه ، ثم قال له :

— ولكن لماذا ترفض أمك الاقامة معك ؟ لأنك تكره أخويك من غير شك

— أكرههما ؟ نعم أكرههما الآن فقط من أجل الآلام التى سببها وجودها لأمهما ولى أنا أيضاً ، ولكن لما كانا فى القرية ، كنت أحبهما وأحترمهما كشقيقين أكبر منى سناً . أما هما فعلى العكس من ذلك كان يجرى فى عروقهما دم قابيل ؟ إسمع ياسيدى . كانا لا يعملان شيئاً ، وكنت أنا أعمل للجميع ؛ وكانا يترددان على بيتى ويقولان إن الخبز يعوزهما وأن أمهما نامت طاوية ، فأعطيهما ما عندى من الطعام ، وقد ارتطما فى حمأة الدعارة فتزوجا من امرأتين لهما سيرة قذرة ، ولكنى مع ذلك كنت أعطيهما ما يريدان . ولما سافرا إلى أمريكا ودعتهما وتمنيت لهما الخير كله . سل امرأتى تنبئك ياسيدى

فقال الطبيب بصوت خافت حتى لكأنه يخاطب نفسه :

— ولكن لماذا إذن ... ؟

— لماذا ؟ لأن أمى تقول إنى لست ولدها

— كيف هذا ؟

— سيدى الطبيب ، سلها تشرح لك ، أما أنا فليس عندى من الوقت ما يكفى ، والرجل فى انتظارى للعمل

قال هذا وابتعد مقوس الظهر والساقين وبده فى وسطه كما جاء ؛ وشيعه الطبيب بنظره لحظة ، ثم التفت إلى المرأة وأولادها وقال : « فلتكن مشيئة الله ! »

* * *

عاد الطبيب إلى بيته وهو يفكر فى تفسير هذه الحال الغريبة التى آلمت قلبه ؛ وكانت مارا جرازيا جالسة على عتبة الباب ، فدعاها إلى الدخول وقال لها بصوت فيه رنة الخشونة : « لقد تحدثت إلى ابنك فى بيت العمود . لماذا أخفيت عنى أن لك ولداً آخر ؟ »

فنظرت اليه المرأة دهشة ، وعبثت يدها المرتعشة بشعرها قليلاً ، ثم قالت :

— آه ! ياسيدى الطبيب ! العرق البارد يتصبب من جبينى كلما خاطبنى أحد فى شأن هذا الابن . أشفق على ، ولا تذكره أمامى بعد ذلك !

— لماذا ؟ ما الذى تأخذينه عليه ؟ تكلمى

— فى الحق ياسيدى أنه لم يسىء إلى ... كان يجرى خلفى فى احترام ... ولكن ... انظر كيف أرتعد حين أتكلم عنه ؟ آه ! استمع ، ياسيدى الطبيب ، إنه ليس ابنى

ولما سمع ذلك فقد كل صبر وصاح قائلا : « كيف ؟ ماذا تقولين ؟ أنت بلهاء أو مجنونة ! ألست أنت التى حملته وولدته ؟ »

انكست العجوز رأسها وقالت :

— نعم ياسيدى ، ولكنى بريئة من البله والجنون ... لن أتألم من بعد ذلك إن شاء الله ... وقعت أشياء ياسيدى لا تعرفها لأنك صغير السن ؛ ولكن أنا غارقة فى الألم من عهد بعيد إلى اليوم ... وقد رأيت فى ذلك العهد أشياء لا تستطيع أن تتصورها

— تكلمى ، ماذا رأيت ؟

— أشياء هائلة مخيفة ، لم تكن أنت فى ذلك العهد قد ولدت ... رأيت هذه الأشياء بهاتين العينين اللتين لم تنيا عن البكاء طوال أعوام كثيرة. هل سمعت إلى أحد يتكلم عن رجل يدعى كانا باردو ؟

— غاريبالدى ؟

— نعم ، هـذا هو الاسم الصحيح . وهو الرجل الذى قدم هـذه البلاد وأثار المدن والريف على قوانين الانسان وقوانين الله ! أسمعت إلى أحد يتكلم عنه !

— نعم . نعم تكلمى . ما شأن غاريبالدى فى هذا الموضوع ؟

— أعلم أن هذا الرجل أصدر أوامره عند قدومه بفتح أبواب السجون جميعاً ، فخرج منها أسوأ اللصوص وأفظع القتلة وأخطر المجرمين ، وكان من بينهم رجل ، هو أكثرهم فظاعة ، يدعى (كولا كاميزى) كان رئيس عصبة تقتل الناس كأنهم ذباب . وتجد فى سفك الدماء أكبر لذة . وكان هذا الرئيس يقتل ويقول : إنى أجرب الذخيرة أو أجرب رمى البندقية . أقام فى الريف على مقربة منا وكان يقتـل الرجال الذين يرفضون الانضمام الى عصبته أو يأبون الخضوع لأمره ... كنت متزوجة فى ذلك الوقت ، وقد مضى على زواجى بضعة أعوام وكان عندى ولداى اللذان يقيمان الآن فى أمريكا . وكان زوجى المسكين يعمل فى أرض (بوزيتو) فمر به كولا كاميزى وأخذه قسراً ؛ وبعد يومين عاد الى زوجى شاحب الوجه كالموتى حتى كدت أنكره ... لم يستطع الكلام وكانت عيناه ممتلئتين بكل ماشاهد ، وكان المسكين يخفى يديه اشمئزازاً من كل ما أرغم على فعله ... آه ! يا سيدى الطبيب ، لقد جمد دمى فى عروقى حين رأيته على هذه الصورة . صرخت قائلة عند رؤيته رحمه الله « نينو ، ما ذا فعلت ؟ » ولـكنه عجز عن الكلام وجلس أمام الموقد صامتا وهو يخفى يديه تحت ثيابه وينظر إلى الأرض بعينى أبله أو مجنون . وبعد وقت طويل قال : « الموت أفضل ! » : ظل مختبئاً ثلاثة أيام ، ثم خرج فى اليوم الرابع . كنا فقراء يا سيدى ولا بد من العمل ... خرج ليعمل ، ولم يعد فى المساء . انتظرت طويلاً ثم أدركت كل شىء ، وقلت لنفسى مع ذلك لأدفع عنى الخوف « من يدرى ؟ لعلهم لم يقتلوه . ربما أخذوه فقط كأول مرة ! » علمت بعد مضى ستة أيام أن كولا كاميزى يقيم مع عصبته فى (مونتلوزا). ذهبت إلى تلك الناحية كالمجنونة فى يوم شديد الرياح إلى درجة عجيبة . هل رأيت الهواء يا سيدى ؟ فى ذلك اليوم كان الانسان يستطيع أن يراه ، فيجعله يعتقد أن أرواح الذين قتلوا تصرخ طالبـة من الله والناس الانتقام ! أسلمت نفسى الى هذه الرياح ، وكبـدى قريحة وقلبى ممزق معذب ، فحملتنى . استغرقت على الأكثر ساعة فى الوصول الى الكهف . كان به فناء كبير محاط بالأسوار ينفذ اليه الانسان من باب صغير يصعب العثور عليه . تناولت حجراً لأطرق به الباب ... لم يفتح أحد فعاودت الكرة بشدة ، ففتح الباب ورأيت ... آه ياهول مارأيت !

توقفت ماراجرازيا عن الكلام وقد استولى عليها الرعب الشديد ، وتقلصت أصابعها وخذلها الصوت فعجزت عن متابعة الكلام . وبعد لحظات قالت :

— فى اليد ... فى اليد ... هؤلاء القتلة ...

توقفت ثانية وحركت يديها كمن يدفع عن نفسه شيئا . فقال الطبيب :

— حسن . وبعد ؟

— كانوا يلعبون فى الفناء بكرات ... هى رؤوس رجال ... ملوثة بالطين ... كانوا يمسكونها من الشعر ... وكان رأس زوجى فى يد كولا كاميزى نفسه ... عرضها السفاح لنظرى فصرخت صرخة حسبتها مزقت صدرى . صرخة جعلت السفاكين يضطربون ويرتعدون ... ضغط كولاميزى على عنق ايرغمنى على الصمت ، ولكن أحد رجاله انقض عليه فجأة ، ثم تشجع أربعة أو خمسة من زملائه وألقوا بأنفسهم على رئيسهم ... لقد تنبهوا من غفلتهم ووضعوا حدا لطغيان هذا الشيطان . وكم كان فرحى عظيما حين كنت أرى هذا الكلب يختنق أمام عينى بأيدى رجاله

سكتت العجوز وهى تلهث من شدة الهياج ، وحدق فيها الطبيب وبدت على وجهه أمارات الشفقة والرعب والسخط ، ثم تغلب على ما فى نفسه وفكر طويلا فلم يستطع أن يستخلص مما سمع أية صلة بين قصة المرأة وابنها روكو ، فسألها الوضوح فقالت :

— انتظر حتى أستريح قليلاً ... الرجل الأول الذى انقض على رئيس العصبة ودافع عنى كان يدعى ماركو

فصاح الطبيب قائلاً : « آه ! أذن روكو ... »

— ولده ... فكر قليلاً يا سيدى الطبيب . هل كنت أستطيع أن أكون امرأة هذا الرجل بعد الذى رأيت ؟ ! راودنى عن نفسى وأراد اغتصابى ... احتجزنى عنده ثلاثة أشهر مقيدة مكممة الفم لأنى كنت أصرخ وأعضه . وفى نهاية الأشهر الثلاثة ، استطاعت العدالة أن تقبض عليه وترسله إلى السجن ، فمات فيه ... ولكنى كنت حاملاً ... آه ! يا سيدى ، أقسم لك أنى كنت أشعر بأحشائى تتمزق ، وبأنى أحمل فى بطنى غولاً ... واعتقدت أنى لن أستطيع رؤيته أو حمله بين ذراعى . وكلما كنت أفكر فى أنى سأرضعه ، كنت أصرخ كامرأة أصابها الجنون . كان أحب إلى أن أموت أثناء الوضع ، أى رحم الله روحها ، ساعدتنى وجنبتنى رؤيته ، واستودعته عقب وضعه مباشرة ، أقرباء أبيه ، فقاموا بتربيته . والآن ، أعرفت يا سيدى لماذا أقول إنه ليس ابنى ؟ آه ! ليتنى ما ولدته ! ليتنى مت قبل أن أحمله !

ظل الطبيب لحظات غارقا فى خواطره ثم قال :

— ولكن ولدك نفسه لم يسىء إليك

— هذا حق يا سيدى ، وإنى لم أنطق بكلمة واحدة تسىء اليه ، ولكن ماذا أصنع ؟ لا أستطيع رؤيته ، حتى من بعيد ! إنه صورة أبيه تماما ؛ وجهه وهيئته وصوته . إنى حين ألمحه أرتعد ويغمر العرق البارد جبينى ! انه ليس منى ... كيف أصنع !

سكتت ومسحت عينيها بظهر يدها اليمنى ، ثم خشيت أن يغادر المهاجرون القرية دون أن يتسلموا منها خطابا لولديها . فاستجمعت شجاعتها وقالت للطبيب السابح فى أفكاره :

— أحسن الى يا سيدى كما وعدتنى

فتنبه الطبيب وقال : « انى على أتم استعداد »

فدنت العجوز من المنضدة وشرعت تملى على الطبيب بصوت تخنقه العبرات :

— ولدى العزيزين . . .

ترجمة حسن صادق